الآخر المرثي في شعر بني تميم " دراسة تحليلية "

الباحثة م.م هالة كريم رضا ا.م.د علي كريم حميدي

الملخص

يعد الرثاء من أصدق الأغراض الشعرية التي تطرق إليها الشعراء بشكل عام وشعراء بني تميم بشكل خاص ، وذلك لما فيه من تفريغ للطاقات المشحونة بالحزن على فقد الآخر ، فتتحرك الشاعرية وتعبر عن الأسى العميق الذي عمهم بفقده ، وان شعراء تميم سعوا إلى رسم صورة مثالية للآخر في رثائهم ، وذلك من خلال تعداد الصفات الحميدة التي عرف بها المرثي في حياته. وإن جعل هذه الصفات بالمرثيين ما هو إلا تخليد لذكراهم بعد الموت. وما نلحظه في أشعارهم تنوع الرثاء عندهم، إذ اشتمل رثاؤهم على الأب والأبن والأخ والصديق، بشكل تجسدت فيه الصفات والمواقف النبيلة التي تخلدهم ابد الدهر .

واتبعنا في هذا البحث المنهج التحليلي الذي يعتمد على تحليل النصوص والأبيات الشعرية لبيان ما فيها من عواطف صادقة تجاه المرثي .

الكلمات المفتاحية : (الآخر ، المرثي ، شعر بني تميم)

Abstract

Elegy is considered one of the most sincere poetic themes that poets have addressed in general, and specifically the poets of Banu Tamim, due to its role in releasing the energies charged with sadness over the loss of others. The poetic expression moves to convey the deep sorrow that engulfed them due to this loss. The poets of Tamim sought to create an ideal image in their elegies by enumerating the good qualities that the deceased was known for in their lifetime. Highlighting these qualities in the elegy is nothing but a means of immortalizing their memory after death. What we notice in their poetry is the diversity of elegy, as their laments included the father, son, brother, and friend, embodying the noble qualities and stances that will immortalize them forever. In this research, we followed the analytical approach that relies on analyzing texts and poetic verses to illustrate the sincere emotions contained within them towards the deceased.

مقدمة

يعد الرثاء من أهم وأبرز وأقدم الفنون الشعرية ،لأنه مرتبط بقضية شغلت الإنسان وأخذت جانباً كبيراً من تفكيره وهي قضية الموت بشكل عام ، وفقدان الأحبة والمقربين بشكل خاص . وللرثاء أهمية وقيمة كبيرة في الأدب العربي لأنه أثرى الشعر ، وأضاف له جماليات نصية ، ووسع مساحات القول الشعري . وهو في أبسط مفاهيمه تبيان الصفات الحميدة للآخر المرثي ، شأنه شأن المدح . وأشار إلى ذلك قدامة بن جعفر في قوله :

((ليس بين المرثية والمدحة فصل إلا أن يذكر في اللفظ على إنه لهالك مثل كان ، وتولى ، وقضى نحبه ، وما اشبه ذلك))[1] .

اما ابن رشيق فقد قال : ((ليس بين الرثاء والمدح فرق ، إلا إنه يخلط بالرثاء شيء يدل على أن المقصود به الميت))[2] .

ونلاحظ من خلال هذين النصين ، أن النقد العربي القديم لا يرى وجود فرق بين المدح والرثاء إلا في شيء واحد، وهو أن المدح يختص بالحي ، والرثاء يختص بالميت .

ان كثرة شيوع هذا الغرض في عصر ما قبل الإسلام يرجع إلى أن القبائل كانت تريد تمجيد المقتولين منها ، وربما كان الأمر له علاقة أيضاً بقضية تكسبية ، من خلال ما وصلنا من رثاء لملوك وامراء وشيوخ وقبائل [3] .

أما في العصر الاسلامي فكاد هذا الغرض ينعدم باستثناء رثاء الرسول (ص) وبعض الصحابة ، لتغير صوره ، بسبب تأثير الدين الذي جعل فكرة الموت تتغير من أمر سيء إلى أمر اعتيادي مرتبط بفكرة القضاء والقدر ، وكذلك التحولات الاعتقادية الخاصة بمفهوم الشهادة والجنة واليوم الآخر .

وقد شاع هذا الفن الشعري كثيرا في اشعار بني تميم الذين عاشوا حياة مليئة بالحروب والغزوات التي شهدت مقتل الكثير من افراد القبيلة . فظل الموت امامهم ماثلاً يترقبونه ليندبوا من خلال أشعارهم موتاهم . ويذكروا مناقبهم وأخلاقهم وما خلفه موتهم من فراغ ، هذا بجانب وفياتهم الاجتماعية بعيداً عن نطاق الحرب .

وقد تنوعت قصائد الرثاء عندهم ، فراحوا يرثون الأب، والأبن، والأخ ،والزوج ،والصديق ، بأنبل الصفات التي تخلد ذكرهم ، وسنتحدث في هذا المبحث عن صور الرثاء الموجودة عند شعراء بني تميم :

للموت والفقد أثر كبير في إنكسار الشاعرة آمنة بنت عتيبة[4] ، وما صاحب هذا الفقد من ألم وحسرة تجاه أبيها المرثي ، قائلة :

تَـرَوّحْنَا مِنَ اللّعْبَاءِ عَصْرَا فَأعْجَلْنَا إلاّلاَهَةَ أنْ تَؤُوبَا

عَلى مِثْلِ ابْنِ مَيّةَ فانْعَيَاهُ بِشَقّ نَوَاعِمِ البَشَرِ الجُيُوبَا

وَكَانَ أبي عُتَيْبَةُ سَمْهَرِيًّا فَـلَا تَلْقَـاهُ يَـدَّخِـرُ النَّصيبَا

ضَـرُوباً لِلْكِمِيّ إذا اشْمَمَلَّتْ عَوانُ الحَرْبِ لَا وَرَعاً هَيُوبَا [5]

اذا أمعنا النظر في هذه المقطوعة الشعرية نلاحظ أن ظاهرة التحسر والألم سمة بارزة في طياتها ، فالأنا تفقد الصبر وتجهش بالبكاء وتفيض بالحزن والأسى على فقدها للآخر ، إذ تدعو الشاعرة النساء إلى ان يشققن جيوبهن حزناً عليه ، وهذه من العادات الجاهلية (شق الجيب على الميت) ، وهي ظاهرة اجتماعية ما زالت موجودة حتى اليوم للدلالة على شدة التفجع ، ثم تنتقل إلى ذكر مناقب الاخر الذي كان يمتاز بالشجاعة والإقدام مشبهةً إياه بالرمح الصلب نفاذاً وقوة .

ان صورة الاخر ، اي الموتى المرثيين في شعر ما قبل الإسلام ((تكون معبرة عن احساس الناس العميق بالحزن ، ومحاولة ذكرهم وتمجيدهم وبيان فضائلهم التي ماتت بموتهم ، مع التفكير في القدر وقصور الناس امامه وعبثه بهم ولعبة بحياتهم وموتهم))[6] مما جعل الشاعرة تعبر عن حزنها العميق تجاه الآخر المرثي .

وتطالعنا دخنتوس بنت لقيط[7] بمرثية تعدد فيها مناقب الخير والخصال الحميدة لأبيها (لقيط بن زرارة) الذي لقي مصرعه في يوم جبله ، قائلة :

عَثَـرَ الأغرُّ بِخَيْرِ خنْـ ـدَف كَـهْلِها وَشَبَابِهَاّ

وَأضَـرهـا لِـعَـدُوّهَـا وأفكـهـا لِـرِقـابِـهَـا

وَقَرِيـعِـهـا وَنجِـيـبِـهَـا في المُطْبِقَاتِ وَ نـابِهَا

وَرَئِـيسِـهَـا عِنْـدَ المُـلـو كِ وَزِيْـنِ يَـوْمِ خِطَابِهَـا

وَأتَـمِّـهَـا نَـسَـبـاً إذا رَجَـعَتْ إلـى أنْسَـابِـهَـا

فَـرَعَى عَـمُـوداً لـلعَشِيـ ـرَةِ رَافِـعاً لِـنِـصَابِـهَـا

فَـيَـعُولُـهَـا وَيَـحُـوطُـهَـا وَيَـذبُّ عَـنْ أحسَابـهَـا

كـالْـكَـوْكَـبِ الـدريّ فـي سِيمَـاءَ لاَ يَخْـفَى بِـهَـا[8]

تفصح هذه الأبيات عن ألفاظ صادقة المعاني لها تأثيرها على المتلقي ، وبدت لنا تعابير المدح في محض الرثاء بذكر الخصال الحميدة للمرثي ، وهي مواطن عديدة جاءت بالصفات على صيغة (أفعل) توكيداً لهذه الصفات ، كما في قولها (واضرها ، وأفكها ، وأتمها) وكذلك بالصفات المشبهة (قريع ونجيب) . لتؤكد أنه يتميز (بالشجاعة ، والفروسية ، ورئاسة القوم) فضلاً عن أنه كريم النسب ورئيسهم في الشدائد والمصائب وغيرها من الصفات الحميدة التي انماز بها المرثي، وتستمر الشاعرة بذكر الصفات الحميدة فهو ابن العشيرة وسندها ،الواثق من نفسه ، عن طريق الصورة الكنائية (فرعى عموداً للعشيرة ....) كناية عن أن شأن العشيرة مرتفع به ، فهو كالخيمة التي رفع عمودها . كذلك هو كالقمر المنير الذي ينير الدرب ولا يمكن لأحد ان يخفي عليه هذا ، وذلك عن طريق الصورة التشبيهية التي جاء بها (كالكوكب الدري) ، للدلالة على نصاعته وانه لامع مرتفع الشأن ، مثل الكوكب في السماء فهو عظيم المكانة والمنزلة بين قومه .

وعبر سفيان بن مجاشع [9]عن عظم فجيعته وحزنه بفقد الاخر ابنه (مرة بن سفيان) ، قائلاً :

الشَيْـخُ شَـيْـخُ ثَـكْـلانْ

والـجَــوْفُ جَــوْفٌ حَــرَّانْ

والــوَرْدُ وِردُ عَــجْــلانَّ

أنْعِي إلـيكَ مُـرَّة بنَ سُـفْيَـانْ[10]

أن الفجيعة التي أودت بالآخر ، قد أدت الى انتقال الشاعر من حالة العز الى حالة الذل التي انعكست في شعره ، فالأنا الشعرية في هذه الأبيات تعاني من الانكسار النفسي المفعم بالحزن والألم والحسرة ، التي عاشها الشاعر على مقتل الآخر ، إذ ينعى الشاعر في هذه الأبيات ولده الذي قتل في (يوم الكلاب الثاني) ، والذي عده هذا اليوم فاجعة عظيمة له ، فبكاه بكاء مراً وجوفه يحترق لفراقه ، حين رأى جزءاً من قلبه يسقط امامه كأوراق الخريف ، ولهذا كان تأثير الحدث على الأب قوياً [11]،لأن موت الأبن له وقعه خاصة في نفس والديه ، خاصة إذا بلغا الكبر وكانا يذخرانه لكبرهما . فنبرة الانكسار هنا عالية عند الشاعر ، وقد انطوى النص على حزن يحكي النوازع النفسية المتألمة ، لأن مثل هذا الفراق يترك الأنا منكسرة قلقة .

أما السلكة [12]فنجدها تعبر عن حزنها بفقدها للآخر ابنها (السليك بن السلكة) بجملة من الاستفهامات المتتابعة لبيان سبب موته ، قائلة :

طَـافَ يَـبْغِـي نَـجْـوَةً مــن هَــلَاكٍ فَــهَــلَكْ

لَــيْتَ شِـعْـرِي ضَـلَّةً أيُّ شــيءٍ قَــتَــلَكْ

أمَـريض لـم تُــعَــدْ أَمْ عَــدُوّ خَــتَــلَكْ

أمْ تَــوَلى بِــك مـــا غالَ في الدَّهْرِ السُّلَكْ

والــمَــنَــايَـا رَصَــدٌ لِفَــتًى لـم يَــكُ لَـكْ

كُــلُّ شَــيْءٍ قَــاتِــلٌ حِــيــنَ تَــلْقَــى أجَـلَكْ

إنّ أمْــراً فــادِحَــاً عَــنْ جَــوابِي شَــغَــلَكْ[13]

في هذه الأبيات ، تستغرق الشاعرة حالة من التوتر والقلق لفقدها الآخر ، فتتحسر ذاتها وتزيد من آلمها ، ليمتزج صراع الأنا مع ألم الفقد ، وما شكوى الشاعرة إلا إشارة صريحة عن المعاناة التي أثقلتها بسبب فقدها لابنها . ارادت الشاعرة من خلال هذا النص تبيان حزنها الشديد على فقدها لابنها ، الذي التفتت إليه ، مناجية وباكية ، تتمنى أن تعلم سبب موته وتتساءل ، باستفهامات متتابعة ، وهي في هذه الإستفهامات كلها لا تريد الإستفهام فقط عن طريقة الموت ، بقدر ما تحاول تسلية نفسها عن الموت نفسه ، لهذا تفور نفسها بالاستفهامات ، هل مرض أصابه ، أم عرض له عدو فقتله ، أم اصابته الحوادث ، وبكل الأحوال فان المنية إذا جاءت تأخذه اينما ذهب . ثم تنتقل إلى ذكر خصاله الحميدة ، فلا توجد مزية إلا وجعلتها له ، مخاطبه إياه ، كأنه يسمعها _ وأن لم يكن معها _ ومناجية له ، بما يعتل صدرها وما يعتصر قلبها من الحزن والألم ، فقد خاطبته مخاطبة الشخص الذي لا يغيب عن خاطرها . لتؤكد في النهاية حقيقة أنه لا يجيبها ، وأن هذا الانشغال منه هو بسبب أمر عظيم .

ونلاحظ ان الحزن قد خيم على شاعرة من بني تميم[14] لفقدانها أَخويها ، متوسلةً بأكثر الصورة الشعرية حزناً لتبيان شدة تأثرها وحبها لهما ، إذ تقول :

وَقَـدْ زَعَمُوا أني جَزِعْتُ عَلَيْهِمَا و هَلْ جَزَعٌ أنْ قُلْتُ يَا بأباهُمَا

هُمَا أخَوا الحَرْبِ مِنْ لاَ أخَا لَهُ إذا خَافَ يَوماً نَبْوَةً فَدَعَاهُمَا[15]

مما تقدم في اعلاه نجد أن صوت الأنا المنكسرة والمستسلمة واضح في الأبيات فهي تعاني من الفجيعة والخوف والغربة ولما ألمَّ بها من خطب تجاه فقدها للآخر . والأبيات تنم عن صدق العاطفة وما تحمله من حب ورأفة وحزن ووجد تجاه أخويها ، حتى أننا يمكن أن نلمس علو درجة حبها للآخر. فهي من شدة هذا الحب تفديهما بأبيها ، وهما شجاعان لكن شجاعتهما هي لنصرة المظلوم الذي لا ناصر له ، أو نصرة القبيلة ، ولا يتخاذلان أو يتوانيان عن تقديم المساعدة .

فكأن الشاعرة أرادت من خلال ذكر شجاعتهما إثارة الأشجان وتجديد اللوعة على الميت ، والحزن على موته وفراقه ، وأن لا يقتصر الحزن عليها فقط ، وإنما أن يشمل الجماعة أيضاً وما فقدوه لأنه يخصهم كما يخصها ، لذلك عمدت إلى ذكر نصرتهما للمحتاج ، للتذكير بعظيم الفقد ، وحتى يظل ذكرهما محفوراً في الذاكرة ولا ينسى على مر الزمان . [16]

إنَّ ألم الفقد يولد عند الراثي مشاعر لا يستطيع أن يتحكم بها ، فجاء الرثاء لإظهار الحسرة على فقدان الأحبة ، تتجلى منه العاطفة الصادقة ، المنبعث منها ألم الفقد والشوق إلى الشخص الذي ذهب دونما رجعة ، وأدق تمثيل لهذا ما نجده عند توبة بن مضرس[17] في رثاء اخوية (مرداس وطارق) ، قائلاً :

ليبْكِ سِنَانِي عَنْتَراً بَعْدَ هَجْعَـةٍ وسيفِي مِـرْداسـاً قَتِيلَ قَنـانِ

قتيلانِ لا تبكي المَخاضُ عليهما إذا شَبِعَتْ من قَرْمَلٍ وأفَـانِ

فإنْ لَمْ أُفَرقْ مِنْهُـمُ بَيْنَ إخْـوَةٍ فَلَا رَفَعَتْ سوطي إلى بَنَانِي[18]

الملاحظ على الأبيات أن الأنا تعيش حالة من الحزن والأسى لفقدها الآخر ، وبجانب هذا الندب نجد تأبين الآخر وذكر الصفات الإيجابية ، ولا تبتعد هذه الصفات في الرثاء عما وصف بها الأشخاص في الفخر والمدح من كرم وجود وسخاء وغير ذلك من القيم الخلقية والأخلاقية التي تعد أثراً من آثار الفقيد فيمن حوله بحيث يرونه في أسمى درجات الكمال التي تثير عاطفتي الاعجاب والحزن فرثاهما بذكر صفاتهما الحسنة . وقد جاء بصورة يبدو ظاهرها سلبياً ، لكنها ترسخ معنى الايجابية في سيرتهما ، وهي صورة جديدة في الشعر ، فهما كانا كريمين وبسبب وفاتهما ، فإن الأبل لن تبكي عليهما ، فكأنها تفرح بموتهما أو أنها لا تحزن عليهما ، وهي كناية عن شدة كرمهما لأنهما كانا يذبحانها للضيوف . كأن الشاعر هنا أراد المبالغة في وصف كرمهما .

ونرى أنه عاهد نفسه على أن يأخذ بثأرهما ، داعياً على نفسه بأنه إن لم يفعل ذلك فلتشل يده بحيث لا يستطيع أن يرفع سوطه ليضرب به فرسه وهو مثل كنائي استعمله كثيراً من الشعراء كناية عن العجز .

ويستحضر قطن بن نهشل[19] أدق التفاصيل الخاصة بصفات الاخر المرثي / أخيه (جندل) ، إذ يقول :

وَذَاكَ أبُـو لَيْلَى أتَـانِي نَعْيُـهُ فَكَادَتْ بي الأرضُ الفضاءُ تَضَعْضَعُ

كَسَاقِطَةٍ إحْـدَى يَدَيْـهِ فَجَانِبٌ يُعَـاشُ بِـهِ مِنْـهُ وآخَـرُ أضْـلَـعُ

ويَضْعفُ عنْ أنْ يَظْلِمَ النَّاسَ حَقَّهُم وفي حَقّ مَنْ لاقَى الزَّمـانَـةَ مَطْمَـعُ

فَأغْنَى غَنَـاهُ المَيْتُ فالحَيُّ أضْيَـعُ إذا أخَـوانِ آذنَـا فَـتَـفَـرَّقـا

إذا جُعِلَتْ نَجْـوَى المَنِيـنِ تَصَـدَّعُ[20] فَلاَ يَبْعُدْنَكَ اللهُ خَيْرَ أخي امْرِئِ

تفصح هذه الأبيات عن حالة الحزن الشديد التي عاشها الشاعر بفقده لأخيه . فإحساس الشاعر بالمأساة كان احساساً ذاتياً لا يشاركه فيه أحد [21] وكأن الشاعر يريد اثباتاً لذاته ووجودها مع الاخر المرثي فقط ، فضلاً عن أنه من المستحيل نجد الآخر بارزاً في النص الشعري دون الانا . حتى في حالة تكلم الشاعر عن هذا الاخر وجعل النص قائماً على الحديث عنه ، فإن 0الانا تظهر في النص من قريب أو بعيد ؛ لأن الأنا الشاعرة هي من شكلت هذا الآخر [22].

فالشاعر هنا يكشف عن مكانة هذا الآخر عبر حاجته الملحة إلى نصرة أخيه ، فهو يصف نفسه بأنه مقطوع اليد لأن الأخ هو سند وقوة لأخيه ، يعينه على نائبات الدهر وحوادث الأمور والشخص الذي ليس لديه أخ يكون ضعيفاً ومهزوماً ، ولسنا بحاجة هنا للتعريف بمكانة الأخ في المجتمع العربي القديم . ثم ينتقل إلى ذكر صفات ومحاسن أخيه ، فقد امتاز بالعدل والأنصاف فضلاً عن أنه غير ظالم للناس الضعفاء الذين لا حيلة لديهم ، ثم جاء بقوله (لا يبعدنك خير اخي امرئ) وهو دعاء له بعدم البعد وحدوث المكروه ، وكأن الانا الشاعرة هنا رافضة لفكرة تصديق بأن الآخر لم يعد موجوداً .

وفي المضمار نفسه نرى أن يربوع بن حنظلة[23] يرثي الاخر أخيه (مازن) ، إذ يقول :

كَيْفَ بَقَاءُ المَـرْءِ بَعْدَ ابْنِ أُمَّـهِ إذا بَرَقَتْ أوْصَالُهُ كالمَحَـاجِنِ

أخِي ما أخِي لاَ فَاحِشٌ عِنْدَ بَيْتِهِ ولا مُرْثَعن ساقِطٌ في الَّدواجِنِ

وَمَا كَانَ وَقّاقاً إذا الخَيْلُ أحْجَمَتْ وَلاَ ورعـاً جَثامَـة في الأمـاكِنِ[24]

تصل الانا أعلى درجات الانكسار والضعف أمام فقدها للآخر الذي يمثل السند لأخيه فرابطة الأخوة قوية تربطهم عاطفة الحب والمودة ، ويكون الأخ سنداً وعوناً لأخيه في الشدائد والملمات ، فموته يترك عند الأخ أثراً كبيراً في النفس وألماً لا يمكن احتماله فتولع الانا بالبكاء والأنين والندب [25] على فقدها للآخر . يتساءل

الشاعر من خلال استخدامه لاسم الاستفهام (كيف) يبقى وحيداً من دون أخ .

وهو يعبر عن هذا الأمر بتكرار لفظة (أخي) مرتين . وهذه الظاهرة لغوية معروفة في شعر الرثاء قال عنها ابن رشيق ((وأولى ما تكرر فيه الكلام باب الرثاء لمكان الفجيعة وشدة القرحة التي يجدها المتفجع))[26] ، فضلاً عما يقدمه التكرار من ((نغم موسيقي ؛ لأن لغة التكرار في الشعر تظل باعثاً نفسياً يهيئه الشاعر بنغمة تأخذ السامعين بموسيقاه))[27]، وان هذا التكرار يدل على مدى تعلق الشاعر بالفقيد ، وقربه من نفسه ، وحضوره في ذهنه [28] .

ثم ينتقل غلى ذكر فضائل الفقيد فهو شجاع لم يكن مرتداً ولا متخاذلاً وقت الطلب والشدة ، ولم يكتف بذلك فقد أضاف فضائل أخرى غير الشجاعة ، بأنه لم يكن فاحشاً في بيته ، ولا ضعيفاً يسقط في نار الاعداء .

ونستمر بذكر رثاء الأخوة ، وسنعرض لشعر متمم بن نويرة [29] راثياً وباكياً أخاه (مالك بن نويرة) من خلال ذكره لصفاته الحميدة ، قائلاً :

لَئِن مالِك خَلَى علي مكانَهُ لنِعْمَ فتى العَزاء والزمنِ المحلِ
شديد على الاعداءِ سَهْلٌ جنابُهُ لمن يجتدي معروفه غير ذي دخَلِ
كريم الثنا حلو الشمائل ماجشد صَبُورٌ على العزاءِ مشترك الرحلِ
حليمٌ إذ القوم الكرام تنازعوا فَحُلَّت حبُاهَمْ واستخفوا من الجَهْلِ
وكنتَ إلى نفسي أشد حلاوةٌ من الماء بالماذي من عسلِ النَحلِ
وانْ كانتْ الظلماءُ ستراً لبعضِهم بدا وجهُهُ من غيرِ فحشٍ ولا بُخلِ
اخو ثقةٍ لا يعتري الذمَ ناره اذا أوقدت بين الركائب والرَحْلِ[30]

تحاول الأنا هنا التسامي على حالة الحزن والتوجع والانكسار .فقد استغرق في رثائه بذكر محاسنه التي كان يمتاز بها . فهو شديد على الأعداء ، لين مع الناس التي تطلب منه المعروف. كذلك هو حسن الطبع ، وصبور على المصائب ، وهو حليم يكظم غيضه ويمسك نفسه عند الغضب .

وقد أستعمل جملة كنائية أراد من خلالها أن يعلي شأن أخيه ويظهر فيها بأنه ناصع السيرة والذكر . وذلك حين قال (إذا كانت الظلماء ستراً) . فهو هنا يكني عن نصاعة ذكر أخيه على الآخرين الذين يتسترون بالمساوئ .بجانب أن أخاه يمتاز بالكرم ، ولكثرة كرمه ، يجد عنده كل طالب حاجته ومبتغاه . فحاول الشاعر من خلال هذه الأبيات أن يبرز خصال المرثي وما اتصف به والذي تم ملاحظته على أغلب المراثي ((يكون الرثاء مجملاً كالمدح المجمل فيقع موقعاً حسناً لطيفاً))[31] . ويرثيه أيضاً في مرثيته التي تعد من أجود المراثي ، وبها فضله ابن سلام في طبقاته وقدامة بن جعفر على كثير من شعراء المراثي ، حتى سميت هذه القصيدة أم المراثي [32]، لما فيها من ألم وتوجع وتأبين بفقد أخيه ، قائلاً :

لعمري وما دهري بتأبين هالكٍ ولا جَزعٍ مما أصابَ فأوجعا
لبيبٌ أعانَ اللُبَّ منه سماحَةٌ خصيبٌ اذا ما راكبُ الجدب أوضعا
تراه كصَدرِ السَيْفِ يهتزُ للندى اذا لم تَجدْ عند امرئِ السَّوءِ مطمعا
وان تَلقَهُ في الشَربِ لا تَلْقَ فاحشاً على الكأسِ ذا قاذورةٍ مُتَزَّبعا
وما كان وقافاً اذا الخيلُ أحجمت ولا طائشاً عند اللقاءِ مُدَفعا
ولا بكَهامٍ بَزّه عن عدوّهِ اذا هو لاقى حاسراً أو مقنّعا [33]

عند التأمل في هذه الأبيات نجد ان الأنا تعاني من حالة الحزن والتوجع على فقدها للآخر، إلا أنها رافضة للانكسار والخضوع والاستسلام للموت الذي يعد القدر المحتوم ، وما تفرضه عليها مسلمات الدهر فهي ليست ممن يقضي الدهر بذكر محاسن رجل قد هلك ، وليس ممن يجزع من مصائب الدهر رغم عظيم المصيبة الموجعة ، فراح يتحدث عن فضائله الحميدة ، فهو رجل يمتاز بالعقل والذكاء والسماحة إضافة إلى صفة الكرم التي اشتهر بها فقد كان يخصب اضيافه اذا نزلوا به في وقت القحط ، وهنا تحدث عن الأوقات التي يقدم بها كرمه ، وهي أوقات القحط والجفاف وانقطاع المطر مما يدفع الناس إلى طلب الطعام وذلك ((أفضل الكرم عندهم ما كان مع الحاجة) [34] وتأكيداً لكرمه فقد جاء بالجملة الكنائية (كصدر السيف يهتز للندى) وهي كناية عن كثرة كرمه

، إذا تنكر البخيل له ، ولم يكتف الشاعر بذكر هذه الخصال وإنما واصل أغداق الصفات الحميدة عليه فهو مأوى للضعاف وناصرهم ، فلا يضيع عنده مستجير . فضلاً عن أنه رجل كريم الأخلاق غير فاحش ولا متكبر ، حتى وأن جالسته في مجالس الشرب فلا تخرجه الخمرة عن وقاره وحلمه ، كذلك هو رجل شجاع إذا اشتدت المعارك وطعنتهم بأضراسها وانيابها . ثابت في مقارعة الاعداء ، وسيفه قاطع لا يهمه اياً كان عدوه متدرعاً أو حاسراً فسيفه بتار في الحالتين .

أما نهشل بن حري[35] فقد رثى أخاه (مالك) من خلال ذكر الفضائل الحميدة التي أمتاز بها ، فهو قتل عندما كان حاملاً لواء الإمام علي (عليه السلام) في يوم صفين [36]، قائلاً :

أبكي الفَتى الأبيضَ البُهلولَ سنَّتُـهُ ... عِنْـدَ النّداءِ فـلا نِكْسـاً ولا وَرَعـا

أبكي على مالِكِ الأضيافِ إذْ نَزَلُوا ... حينَ الشّتاءِ وعَزَّ الرّسْلُ فانْجَـدَعا

ولـم يَجِـدْ لقِـراهـم غيـرَ مُـرْبعَـةٍ ... مِـن العِشـارِ تُـزَجَّي تحتهـا رُبَـعـا

أهوى لـها السَّيْفَ تَـراً وَهْيَ راتِعَـةٌ ... فأوْهَنَ السَّيْفُ عَظْمَ السَاقِ فانْقَطَعا

فجاءَهُـم بعدَ رَقْـدِ الحَـيّ أطْـيَـبُهـا ... وقدْ كَفَى منهم مَنْ غابَ واضْطَجَعا

يا فارسَ الرّوْعِ يومَ الرّوْعِ قدْ عَلِمُوا ... وصاحبَ العَزْمِ لا نِكْسـاً ولا طَبِعـا

ومُـدْرِكَ التَّـبْلِ فـي الأعـداءِ يطلبُـهُ ... وإنْ طَلَبْـتَ بتَـبْـلِ عنـــدَهُ مَـنَعـا[37]

تبين هذه المرثية صدق المشاعر والرابطة الاجتماعية التي تربط الشاعر بالمرثي ، وهي ما جعلت الشعر يخرج دفقات صادقة في لحظة آنية دونما تكلف أو تصنع ، وهذا كله يرجع إلى أن الرثاء يحاكي حالة فقد فيأتي الشعر متنفساً ليخفف من غلواء الفقد [38] . وإذا أمعنا النظر في هذه المرثية يتبين لنا تمزق الانا ومعاناتها من فقدان الآخر ، لتترجم الحزن عن طريق البكاء . فقد جاء الشاعر بالفعل المضارع (أبكي) مكرراً مرتين . وهذا التكرار يوحي بالحزن والأسى والحسرة ، إضافة إلى أنه يشير إلى استمرارية الحزن التي تسيطر على كل شيء بفقدان المرثي . فلم يجد سوى البكاء منقذاً يلجأ إليه . ثم ينتقل الشاعر بعد هذا إلى تعداد الخصال الحميدة التي عرف بها الآخر ، فهو كان صورةً حيةً للكرم لأنه حين ينزل عليه الضيوف ، يذبح لهم أجود الإبل ، ومنها المربع من الإبل ، أي ما ولد في الربيع ، كناية عن تضحيته حتى بصغار الإبل وافضلها اكراماً لضيوفه ، وهو قد أكثر فيها الذبح والضرب بالسيف ، ولم يكتف الشاعر بذكر كرمه فقط ، بل ينتقل ليذكر خصالاً أخرى كان يمتاز بها المرثي ، فهو صاحب عزم وإرادة ، لا يقصر عن نجدة أحد ، لأنه صاحب خلق عالٍ وليس بدنيء الخلق ، إضافة إلى أنه كان فارساً يمتاز بالشجاعة والقوة ، ولشجاعته أيضاً كان يدرك ثأره لدى الاعداء ، ولا يستطيع عدوه أن ينال ثأره عنده .

ونجده في موضع آخر راثياً ابن أخيه (يزيد بن نهشل) من خلال ذكر فضائله الحسنة التي يمتاز بها ، إذ يقول

لعمري لئن أمْسَى يزيدُ بن نَهْشَلٍ ... حَشَا جَدَثٍ تسفي عليه الرّوائحُ

لقد كانَ ممنْ يبسطُ الكفَّ بالنّدى ... إذا ضَنَّ بالخيرِ الأكُفُّ الشَّحائحُ

فبعدَكَ أبْـدَى ذو الضَّغينةِ ضِغْنَـهُ ... وسَدَّليَ الطَّرْفَ العيونُ الكواشِحُ

ذكرتُ الذي ماتَ النَّدَى عندَ موتِهِ ... بعـاقِبـةٍ إذْ صالـحُ العَيْشِ طـالِحُ[39]

عبر الشاعر عن حزنه العميق تجاه الآخر المرثي فوطأ الشاعر قصيدته بقسم أراد من خلاله أن يبين أن موته لم يمح أثره حتى وإن كان قبره تسفي عليه الرياح ، فذكره باقي بين الناس سيرته ناصعة البياض صافية ونقية بسبب الجوانب البارزة التي أتصف بها الآخر .

فقد كان يمتاز بالجود والكرم وكان يجود بماله إذا ضن به البخلاء . والكرام كانوا معدودين بسبب حياة العرب القاسية الشحيحة الموارد ، فضلاً عن أنه كان شجاعاً مغواراً لم يضعف ولم يجبن في القتال وإنما جسد مواقف بطولية فقد كان يقهر الاعداء بقوته ، ويستمر الشاعر بالتحدث عن صفاته النبيلة فقد كان سنده في الملمات والنوائب ، وأخذ يتحدث عن خسارته بفقده فقد أظهر الاعداء عداوتهم ، وبموته مات الجود والكرم ، ونجد أنه أستعمل أحد المحسنات البديعية وهو الطباق (الصالح ، الطالح) ، الذي يأتي به الشعراء في سبيل اضفاء إيقاع مضاعف للنص ، بما يقدمه من تناسق صوتي بين المفردتين الواردتين ضمن صيغة الطباق .

دخنتوس بنت لقيط باكية على زوجها / عمير بن معبد بن زرارة ، قائله :

أعَينِي ألاَ فَابْكي عُمَيْرَ بنَ مَعْبَدِ وَكَانَ ضَروباً بالِيَدَيْنِ وَبَالِيَدِ (40)

تعيش الانا حالة من التفجع والحزن والأسى على فقدها للآخر / الزوج . مستحضرةً الدموع ، وهي من أكثر الأساليب الفطرية المستعملة للتعبير عن حزنها وآلمها وحجم المصيبة جراء فقدها لزوجها . لأن أصل الرثاء ، وقبل أن يكون تمجيد بالميت وتعداد صفاته الحسنة ، هو ((حزن وبكاء ولوعة وتفجع))[41] ، والناس عامة والشعراء بخاصة ، تعارفوا على أثر الدمع في إطفاء حرقة القلب ولظى الحشاشة [42] . لهذا فإن الشاعرة تدعو عينيها للبكاء وإجراء الدمع على زوجها مستعملة اسلوب النداء في قولها (أعيني) وهو نداء للقريب ، وكأنها تحرض عينيها وتلومها وتستدعيها لتصب دمعاً أكثر . فالانا الشاعرة هنا تجيش بصدق العاطفة لما يجول فيها من ألم وإحساس بمرارة الفقد ، ثم تنتقل إلى تسلية نفسها ومواساتها بأنها رغم فقدانها شخصاً كانت له مكانة خاصة في قلبها ، فإن فضائله التي كان يتمتع بها هي تسلية لنفسها عن هذا الفقد . فقد كان زوجها ذا وجاهة اجتماعية عند قومه ، فضلا عن أنه يمتاز بالشجاعة والقوة .

ولأوس بن حجر[43] أبيات في رثاء صديقه (فضاله بن كلدة) ، وقد عدها النقاد من أحسن المطالع في الرثاء [44]، قال فيها :

أيَتُهَا النَفْسُ أجْمِلي جَزَعَا إنّ الذي تَحْذَرينَ قد وَقَعَا

إنّ الذي جَمَعَ السماحَةَ والنَّـ ـجْدَةَ والحَزْمَ والقُوَى جُمَعَا

الألْمَعِيّ االذي يَظُنُّ لكَ الظَّـ ـنَّ كَأنْ قَدْ رَأى وَقَدْ سَمِعا

والمُخلِفَ المُتلِفَ المُرَزّأ لَمْ يُمْتَعْ بِضَعْفٍ ولمْ يمُتْ طَبَعَا

والحافِظَ النّاسَ في تحوطَ إذا لم يُرْسِلوا تَحْتَ عائِذٍ رُبَعَا (45)

تواجه الذات الشاعرة هنا نفسها ، داعيةً إلى التحلي بالصبر على ما أصابها من فجيعة ، مخاطبة إياها من خلال أسلوب النداء (أيتها) ، من أجل أن تصبر ولا تبالغ في الحزن لأن الذي كانت تخشاه قد وقع فلا جدوى من الجزع والحزن على فقدها للآخر . وهذه القصيدة عدها النقاد ضمن أفضل ست مرثيات قالها الشعراء

العرب ، كما أن المبرد قال أنه لم يعرف أحد أبتدأ مرثيته وتبعها بمثل هذا الابتداء مثلما فعل أوس بن حجر[46] . اما الحاتمي فقد ذكر بأنَّ ((مراثي الشعراء الجاهلية المشهورة المقدمة والموسومة بميسم البيان ، المتعالمة بمعالم الإحسان ، ستة أحدها كانت هذه المرثية)) [47] . وقد أستغرق الشاعر بذكر فضائل المرثي الذي كان يجمع بين

السماحة والندى ، وفصاحة اللسان ، أضافة إلى أنه يمتاز بالذكاء والفطنة ، والقوة التي لم يتسلط بها على الضعيف ابداً ، بجانب أنه كريم يتلف ماله جوداً وكرماً ،وقد عبر عنه بأسلوب الطباق البديعي من خلال مفردتي (متلف ومخلف) ، كذلك فإنه كان يساعد الفقراء والمحتاجين ، وهو ممن يحفظ الناس في سنوات الجوع عن الموت ، والانفاق في زمن القحط والجوع .

ويرثيه أيضاً في مقطوعته الشعرية ذاكراً صفاته الإيجابية ، قائلاً :

أبا دُلَيجَـةَ مَـن يُـوصَى بِـأرْمَلَـةٍ ... أم مَن لأشعَثَ ذي طِمرَين طِملالِ

أم مَن يكون خطيبَ القوْم إن حفَلوا ... لَـدى مُـلـوكٍ أولي كيْـدٍ وَأقْوَالِ

أم منَ لقـوْمٍ أضَاعـوا بعض أمـرِهـمِ ... بيـنَ القُـوطِ وبَيـنَ الدّيـنِ دَلْـدَالِ

يـوْمـاً بِأجْـوَدَ منْـهُ حينَ تَسْألُـهُ ... ولا مُغِـبٌ بِشَـرْجٍ بيـنَ أشبْـالِ

لَيْثٌ عليـه مِـنَ البَـرْدي هِبْرِيَـةٌ ... كـالمرزبـانـيّ عَيـالٌ بِآصَـالِ

لا زالَ مِسْـكٌ وَرَيحـانٌ لـهُ أرَجٌ ... عَلى صَدَاكَ بصافي اللوْنِ سَلسالِ (48)

يعبر الشاعر في هذا النص الرثائي عن صدقه ومحبته تجاه المرثي ، معدداً كل مناقب الخير التي عرف بها الآخر بعد حياته . إذ تتجسد في هذه الأبيات لوحة تعبيرية مثالية عن خصال رآها الشاعر في المرثي ، من اغاثة الأرامل والعطف على الضعفاء ونجدتهم ، كما أنه قائد الوفود في المحن والشدائد ، يفرج همهم ويبث

فيهم روح الطمأنينة والأستقرار ، بجانب أنه المرشد والناصح للقوم الذين يكونون بين المعصية والطاعة ، فيحاول أن يهديهم ويرشدهم إلى الطريق المستقيم ، ومن صفاته الاخرى التي أمتاز بها أنه شجاع ومقدام وشجاعته كشجاعة الأسود الضارية ، فقد كان يجمع الشمل ويرد اعتداء الغاشم ، حتى أن لأثره الطيب ستبقى ذكراه تفوح مسكاً بين الناس .

إن الفضائل الحميدة التي أمتاز بها المرثي والتي ذكرها الشاعر هي لتبيان أهميته ومكانته الاجتماعية عند الناس ، وان المثالية التي وصل إليها المرثي تمثل مرحلة الخلود بعد الموت ، وعلى قدر وجودها في الفرد تكمن مكانته في المجتمع (49).

وفي المضمار نفسه نجده يدعو عينيه إلى البكاء على صديقه (عمرو بن مسعود) حزناً وتوجعاً على خسارته ، فيقول :

يا عينُ جودي على عمرو بنِ مسعودِ ... أهلِ العَفافِ وأهلِ الحزْمِ والجـودِ

أوْدى رَبيـعُ الصَّعـاليكِ الألى انتَجعوا ... وكـل ما فَوْقَها مـن صالحٍ مـوُدي

المطعمُ الحـيَّ والأمْـوَاتَ إن نَـزَلـوا ... شحـمَ السَّنامِ من الكـومِ المَقاحيدِ

والـواهبُ المـائـةَ المِعْكـاءَ يَشْفَعُهَـا ... يـوْمَ النضالِ بِأخْرى غيـرَ مْجهـودِ(50)

نلاحظ مما سبق أن الحزن والألم هي سمة ثابتة عند الشعراء الذين وقفوا عاجزين أمام الموت الذي هو قدر محتوم ، فالانا تواجه لحظات مؤلمة بعد فقدانها للآخر ، فأستعمل الجملة الاستعارية (يا عين جودي) طالباً من عينيه البكاء توجعاً وألماً على فقد المرثي ، لهذا لجأ الشاعر إلى ما لجأ إليه غيره من الشعراء في تسلية نفسه بالحديث عن مآثر الآخر ، الذي كان يمتاز بأنه من أهل العفة والشجاعة والبسالة والجود ، حتى كأنه بموته مات الصعاليك ، الذين كانوا معروفين أيضاً بالفروسية ونصرة المظلومين ، لهذا وصفه بأنه مطعم للاحياء والأموات من خلال مجيئه بالطباق (الأحياء ، والأموات) بمعنى أنه كان يطعم الضيوف وينجد الجوعى الذين يشرفون

على الموت ، بمعنى أنه يكرم بوقت الرخاء وبوقت القحط ، مقدماً لضيوفه شحم السنام الذي يعد من أهم جزء بالناقة ، ولشدة كرمه كان يهب إبله أثناء الحرب للأكل او لركوب المقاتلين ، وقد أرتفع الشاعر بذكر الشمائل والفضائل الحميدة للمرثي ، فهو بفقده لم يخلفه أحد في جوده وشجاعته ، وأنه ظل في نظر الشاعر مثالاً لهذه الصفات ، وبشكل عام هذه الصفات هي صفات كانت العرب تمدح فيها الحي والميت ، وأطلق عليها النقاد الاقدمون (مديح الميت)[51] .

وفي الموضع نفسه نتلمس من خلال شعر الاسود بن يعفر[52] طابع الحزن والألم والدعاء للآخر (مسروق بن المنذر) بعدم البعد والفراق ، إذ يقول :

أقـول لمـا أتـاني هُلكُ سيـدنا لا يبعد الله رب الناس مسروقا

مـن لا يشيعـه عجز ولا بخـل ولا يبيت لديه اللحـم موشـوقاً

مِردى حروب اذا ما الخيل ضرجها نضحُ الدماء وقد كانت أفاريقا

والطاعن الطعنة النجلاء تحسبها شنا هزيما تمج الماء محزوقا

وجفنـة كنضيح البئر متـأقسة تـرى جوانبـا اللحـم مفتـوتـا

يسرتهـا ليتـامى أو لأرملـة وكلت بالبائس المتروك محقوقا[53]

الأبيات تحمل في طياتها طابع المحبة والحزن على المرثي ، الذي دعا له الشاعر بالبقاء على سبيل التفاؤل ، مثلما هي عادة العرب ، وهو ما عبر عنه بلفظة (لا يبعد) ، يريدون بها ان يكون ذكره مخلداً بين الناس ، لأن بقاء الإنسان بعد موته بمنزلة حياته ، لأن الذكر للإنسان عمر ثانٍ . وبما أن النفس تميل إلى عدم تصديق الأخبار المهولة والمؤلمة فإن الشاعر حين جاء بهذا الدعاء للمرثي فهو كأنه يعيش صراعاً بين نفسه وعقله ((حيث أن العقل والعاطفة تلعب دوراً مهماً في رفض وقبول الشيء))[54] ، وهذا كله بسبب ما يحمله المرثي من فضائل في نفس الراثي وهو ناتج عن صدق العاطفة ، فهو يمتاز بأنه كريم الخصال ، ومن شدة كرمه كان لا يدخر اللحم ، بل يطبخه طرياً ويطعمهم الأضياف به ، ويمتاز أيضاً بالشجاعة فقد كان مقدماً في المعارك إذا أشتدت الحروب ، قوي الشكيمة ، إضافة إلى أنه كريم النفس يساعد الأيتام والأرامل والضعفاء والفقراء الجائعين المحنية ظهورهم من الجوع . ومما يجذب نظرنا إليه أن ارتباط الآخر بالرثاء يأتي من خلال أفاضة المعاني الجليلة على المرثي ، الذي جعل من قضايا مجتمعه شغله الشاغل ولم يلهه عنه أي شيء آخر ، ولا سيما قضية العوز والفقر ومساعدة المحتاجين التي كان المرثي يمتاز بها وهي كل ((ما يزين الرجل في رأيهم من صفات وخلال ، وكانهم يريدون أن يصوروا تصويراً تاماً مدى الخسارة في فقيدهم)) [55].

كل هذه الصفات تكمل شخصية المرثي وتجعله محط أعجاب الآخرين ، زد على ذلك فإن ((الشاعر لا يتقيد بالاطار الواقعي وشخصية المرثي وإنما ينحو إلى رسم الصور المثالية له)) [56] . وهذا كله متأت من الجانب الإنساني والشعور النابع من صدق العاطفة تجاه الآخر المرثي .

قال عبدة بن الطبيب[57] ، أبياتاً في رثاء الآخر (قيس بن عاصم) ، حين ذهب إلى قيس ليصالحه بعد جفوة حدثت بينهما ، فوجده قد مات . كما أن هذه الأبيات شغلت النقاد والشعراء ، فقالوا في مطلعها (عليك سلام الله) تحية الموتى ، وقالوا في البيت الثالث إنه ارثى بيت قالته العرب ، وهو قائم بنفسه ماله نظير ، لا في الجاهلية ولا الإسلام [58]، وقد وقعت هذه الأبيات من نفوس الناس موقعاً خاصاً ، فهم يستشهدون بها عند المصائب ، ويتمثلون بها في الملمات . والابيات هي :

عليكَ سَلامُ اللهِ قيسَ بنَ عاصِمٍ ورَحمَتُـهُ مـا شَـاءَ أن يَتَـرَحَّمـا

تَحيـةَ مَـنْ ألبَسْتَـهُ منـكَ نِعْمَـةً إذا زار عـن شَحطٍ بِـلادَكَ سَلّمَـا

فَما كانَ قَيْسٌ هُلكُهُ هُلْكُ واحِدٍ ولكنَّــهُ بُنْيَــانُ قَــوْمٍ تَـهَـدّمَـا [59]

تحمل هذه الأبيات شعوراً متدفقاً مفعماً باللوعة والحزن على فقد الآخر ، إذ لم يستطع اخفاء ما تكمنه نفسه من مشاعر الحزن والأسى والألم ، لأن فقد المرثي هو خسارة للجماعة كلها وليس له فقط ، لأن الآخر كان سيد قومه . فعمد الشاعر إلى التصريح (باسم الآخر / المرثي) بشكل مباشر لأن قيس بن عاصم هو كبير تميم وزعيمها .

وقد ابتدأ الشاعر كلامه بإلقاء التحية عليه (عليك السلام تحية الموتى)[60] وهذه العادة جرت عند أهل الجاهلية في تحية الأموات . وقد كنَّى الشاعر عن فقده بأنه يعني فقد خلق كثير ، وأنه كالبناء الشامخ لقبيلته وقومه ، فتهدم البناء بموته ، وأن عظم الرزية بموته غير أحوال كثير من الناس .

ونلاحظ هنا أن الشاعر لديه عاطفة خاصة للمرثي ، فقد حملت أبياته طابعاً حزيناً تظهر فيها مميزات الآخر المرثي والفاجعة التي حلت بهم والتي تركت أثراً كبيراً في النفوس ؛ فكان لابد أن يرثى بهذه الخصال لان فقده يعد خسارة فادحة وجسيمة ليس للمرثي فقط وإنما تختص بجميع قومه .

أن لوفاة الرسول الكريم (ص) أثر كبير في نفوس أفراد المجتمع جميعاً ، وأن فقده يمثل فاجعة ليس لشخص معين وإنما هي فاجعة للأمة جمعاء ، فقد عبروا عن حزنهم وبكائهم عبر الشعر الذي يكون له تأثير في قلوب المتلقين منا يجعلهم يرثونه بحرقه وألم ، وخير ما رثاه الزبرقان بن بدر[61] بأبيات صادقة المعاني ، تنم عن عاطفة جياشة ، فقال :

آلَيْتُ لا أبكي على هـالكٍ بعد رسـول الله خيْـر الأنـامْ

بعد الذي كـان لنا هـاديـاً من حَيْرةٍ كانت وبدرَ الظلامْ

يا مُبْلِغِ الأخبار عن ربـه فينـا و يـا مُحيي ليـل التمامْ

وهادي الناس إلى رُشدِهم وشـارِعَ الحِـلَّ لهـم والحـرامْ

أنت الذي استنقذْتنا بعدمـا كنا على مهـواة جُـرْفٍ قيـامْ

فاستـأثـرَ الله بـه إذْ وفـى أيـامـه عنـد حضـور الحمـامْ [62]

نلاحظ من خلال هذه الأبيات ، ان الشاعر يعيش حالة من الحزن والألم على فقد الرسول الكريم محمد (ص) ، لأن المرثي ليس فرداً عادياً يمكن تعويضه ، بل هو نبي الله وخاتم الأنبياء والمرسلين ، الذي كان فقده مصيبة اصابت الأمة جميعاً ولا سيما ذوو القربى له . ويلاحظ على شعر الرثاء للرسول (ص) انه ((يجمع بين شعر العاطفة الخاصة ، المعبرة عن شعور الشخص ، وبين شعر الرثاء العام ، المعبر عن عظم المصيبة في فقده وخسارة الأمة بفراقه)) [63] .

وإذا أمعنا النظر في خطابة الشعري نرى أنه خرج بألفاظ صادقة المعاني لها تأثيرها على المتلقي ، وبدت لنا تعابير المدح في محضر الرثاء ، بذكر فضائل الرسول (ص) من (الهادي ، البدر ، المرشد ، .... الخ) ، هذه الأبيات حافلة بالعاطفة الجياشة تتجلى فيها المشاعر الحزينة ، والمعاني الدينية والصبغة الإسلامية ، وعاهد الشاعر نفسه أنه لن يبكي او يرثي أحداً بعد وفاة الرسول الأعظم محمد (ص) لأنه خير الخلق ، وهو الذي أنقذهم من الضلالة إلى الهدى بعد أن كانوا على حافة الهاوية ، ومرشد الناس إلى الطريق المستقيم بعد أن شرع لهم أمور الحلال والحرام ، مستعيناً بأسلوب الطباق عبر مفردتي (الحل ، والحرام) . ليختم النص بالقول بأن الله سبحانه قد أستأثر بالرسول محمد (ص) ، بعد حضور الموت ، لأنه أدى الرسالة النبوية على أتم وجه ، وهو أمر يدل على التسليم لقضاء الله في نهاية الأمر .

الخاتمة :

يتضح مما سبق أن شعراء بني تميم رسموا صورة مثالية للآخر المرثي من خلال الصفات الحميدة التي عرف بها في حياته ، فجاءت أشعارهم صادقة نابعة من قلوب محترقة على فقدهم لأحبائهم ، عبروا فيها عن حزنهم ولوعتهم إزاء ما فقدوه ، وأن الصورة التي رسموها لم تخرج عن المسلك الذي سلكه الشعراء الجاهليون ، فكلهم ينهلون من معين واحد ويتفقون من حيث المبدأ ، في التعبير عن حزنهم من خلال أشعارهم .

فضلاً عن أن الشاعرة التميمية لم تكن بمعزل عن هذا الغرض فكانت لها صولات وجولات في رثاء أهلها ، بكت فيها (أباها ، وابنها ، وزوجها ، وأخاها) فجاء شعرها قوياً نتيجة لعاطفتها الجياشة ورقة طبعها وفطرتها كل هذه الأمور كان لها الأثر الأبرز لتفوقها في هذا المضمار .

الهوامش :

1. نقد الشعر ، قدامة بن جعفر : 33
2. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، ابن رشيق : 147
3. ينظر : تاريخ الأدب العربي الادب الجاهلي نقد وتحليل ، السيد جعفر الحسيني :136
4. هي أم البنين وابنة عتيبة بن الحارث اليربوعي التميمي ، شاعرة جاهلية من الشواعر البليغات ، وعلى الرغم من ان شعرها الذي وصل غلينا قليل ، إلا أنه يوصف بالبلاغة ، ينظر : معجم أعلام النساء ، محمد التونجي : 10
5. شعر بني تميم في الجاهلية ، عبد الحميد المعيني : 248,247
6. الرثاء ، شوقي ضيف : 7
7. هي دخنتوس بنت لقيط بن زرارة ، شاعرة جاهلية مجيدة ، نشأت بكنف بيت عريق في الشرف والسيادة والشعر ، فأبوها لقيط بن زرارة سيد تمتم وفارس بني دارم . سميت دخنتوس وهو أسم لأبنة كسرى ، وأصله بالفارسي دخت نوش أي بنت الهنئ ، ولم يكن لأبيها سواها ، تزوجت عمرو بن عدس ، أحد فرسان دارم وسادتها ، وكان شيخاً ثرياً ، وخلفه عليها ابن عمها عمير بن معبد بن زرارة ، وكان شاباً قليل المال ، توفيت قبل الهجرة بثلاثين عاماً . ينظر : الأغاني ، الاصفهاني : 146/11، تاج العروس ، الزبيدي : 147/4.
8. شعر بني تميم في الجاهلية ، عبد الحميد المعيني : 334
9. هو سفيان بن مجاشع ، سيد فارس واحد الذين أجتمع لهم الموسم والقضاء من تميم بعكاظ في الجاهلية ، وهو جد الفرزدق ، وقد قتل له ستة بنين على يد بكر في يوم الكلاب الثاني ، ينظر : النقائض ، جرير والفرزدق : 2/ 142
10. شعر بني تميم في العصر الجاهلي ، عبد الحميد المعيني : 343
11. ينظر : الرثاء في الشعر العربي العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري ، عبد الحسين عباس علي : 12
12. وهي السلكة ام السليك ، وهو أحد الشعراء الصعاليك المشهورين ، وكانت سوداء اللون تزوجها عمرو بن يثربي السعدي ، ينظر : شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام ، بشير يموت : 1/ 63
13. شعر بني تميم في العصر الجاهلي ، عبد الحميد المعيني : 93,92
14. وهي شاعرة من بني سعد من بني زيد مناة ، شاعرة جاهلية ، ولم يتمكن صاحب الديوان من معرفة اسمها ، ينظر : ديوان بني تميم في العصر الجاهلي ، عبد الحميد المعيني : 94
15. م . ن : 94
16. ينظر : الرثاء ، شوقي ضيف : 6

17. شعر بني تميم في العصر الجاهلي ، عبد الحميد المعيني : 75
18. هو قطن بن نهشل بن دارم بن مالك بن زيد مناة بن تميم بن مر ، شاعر جاهلي ، سيد شاعر ، له شرف وذكر وخصال في العرب ، وفي بيته توالى ستة من الشعراء لا يعلم توالى مثلهم في أي بيت آخر من بيوتات تميم . ينظر : طبقات فحول الشعراء ، ابن سلام الجمحي : 583/2 ، العمدة ، ابن رشيق القيرواني : 289/2
19. شعر بني تميم في العصر الجاهلي ، عبد الحميد المعيني : 296
20. ينظر : الرثاء في الشعر العربي العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري ، د. عبد الحسين عباس : 325

21. هو توبة بن مضرس ، شاعر جاهلي ، أمه رميلة بنت عوف بن علقمة ، وأخواه طارق ومرداس الذي ظل يبكيهما ، وقد سمي بالخنوت أي الذي لم يكف عن البكاء ، ينظر : رسالة الغفران ، المعري : 578
22. ينظر : التجليات الفنية لعلاقة الأنا بالآخر في الشعر العربي المعاصر ، أحمد ياسين :425
23. هو يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد بن مناة بن تميم بن مر ، وإليه تنسب قبيلة يربوع التي انجبت الكثير من الفرسان والشعراء والصحابة ، وكان شريفاً ابرصاً قال الجاحظ فيه ((من البرصان الاشراف المذكورين ومن آباء القبائل والعمائر يربوع بن حنظلة بن مالك التميمي)) ، له اربع زوجات وثمانية اولاد . ينظر : البرصان والعرجان والعميان والحولان ، الجاحظ : 94 ، جمهرة النسب ، ابن الكلبي : 213
24. شعر بني تميم في العصر الجاهلي ، عبد الحميد المعيني : 228
25. ينظر : صورة الأخ في الشعر الجاهلي ، عادل حماد القاسمي : 41
26. العمدة في محاسن الشعر وآدبه ونقده ، ابن رشيق : 2/ 76
27. جرس الألفاظ ودلالاتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب ، د. ماهر مهدي : 240
28. ينظر : الرثاء في الشعر العربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري ، د. عبد الحسين عباس :322
29. هو ابو نهشل متمم بن نويرة بن حجر بن شداد بن يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد بن مناة بن تميم ، شاعر مخضرم وفارس شجاع ، اسلم وحسن اسلامه ، كان قصيراً جسيماً في عينه عور ، اشتهر برثاء أخيه (مالك) ، عده ابن سلام في أول طبقات المراثي ، عاش متمم يندب أخاه مالكاً ، وحرم على نفسه الزواج ، وحتى عندما تزوج لم يستمر بزواجه لحزنه ، توفي عام 30 هـ . ينظر : أعلام تميم ، حسين حسن : 473,472، طبقات فحول الشعراء ، ابن سلام : 1/ 302
30. مالك ومتمم ابنا نويرة اليربوعي ، ابتسام مرهون الصفار : 132
31. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، ابن رشيق : 130/2
32. ينظر : العقد الفريد ، ابن عبد ربه : 3/ 220 .
33. مالك ومتمم أبنا نويرة اليربوعي ، ابتسام مرهون الصفار : 110,108,107,106
34. ديوان المعاني ، أبو الهلال العسكري : 65
35. هو نهشل بن حري بم ضمرة بن جابر بن نهشل ، شاعر مخضرم ، اسلم ولم ير النبي (ص) صحب الامام علي بن ابي طالب (عليه السلام) في حروبه وقتل أخوه مالك في وقعة صفين ، وهو يومئذ رئيس بني حنظلة ، وكانت رايتهم معه ، فرثاه نهشل بمرات كثيرة ، وبقي نهشل إلى أيام معاوية ، جعله ابن سلام في الطبقة الرابعة من الاسلاميين . ينظر : الشعر والشعراء ، ابن قتيبة : 637 ، الاصابة في تمييز الصحابة ، ابن حجر : 169/11 ، طبقات فحول الشعراء ، ابن سلام : 583 .

36.ينظر : شرح نهج البلاغة ، ابن أبي حديد : 5/ 212 ، وقعة صفين ، ابن مزاحم المنقري : 267,266 .
37.ديوان نهشل بن حري ، د. حاتم صالح الضامن :45
38.تاريخ الادب العربي ، بروكلمان : 48,47
39.ديوان نهشل بن حري ، د. حاتم صالح الضامن : 18,17
40.شعر بني تميم في الجاهلية ، عبد الحميد المعيني : 342
41.الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه ، يحيى الجبوري : 218
42.ينظر : رثاء الابناء في الشعر العربي إلى نهاية القرن الخامس الهجري ، د. مخيمر صالح :22
43. هو اوس بن حجر بن مالك الاسيدي التميمي ، يكنى بابي شريح ، وكان من كبار شعراء تميم في الجاهلية ، وكان اوس زوج ام زهير بن ابي سلمى ، وكان كثير الاسفار ، وأكثر قامته عند عمرو بن هند في الحيرة ، عده ابن سلام في الطبقة الثانية من شعراء الجاهلية ، عاش عمرا طولاً بلغ قرابة (90 عاماً) ، ولم يدرك الإسلام فقد مات قبل بعثة الرسول (ص) . ينظر : الاعلام ، خير الدين الزركلي : 31، طبقات فحول الشعراء ، ابن سلام : 98 .
44.من قضايا البلاغة والنقد ، عبد القاهر الجرجاني : 235/1 ،
45.ديوان اوس بن حجر ، د. محمد يوسف نجم : 54,53
46.ينظر : الكامل في اللغة والأدب ، المبرد : 32/4
47.حلية المحاضرة ، للحاتمي : 76/1
48.ديوان اوس بن حجر ، د. محمد يوسف نجم : 105,104,103
49.ينظر : شرح أشعار الهذليين ، أبي سعيد الحسن بن الحسين السكري : 866/2
50.ديوان اوس بن حجر ، د. محمد يوسف نجم : 25
51.ينظر : الرثاء في الشعر الجاهلي ، د. يحيى الجبوري : 8
52. هو الأسود بن يعفر بن نهشل يكنى ابا الجراح ، وهو فارس يتغنى بالشجاعة ويقارع الفرسان ، وقد سمي ذا الاثار ، لأنه اذا هجا قوماً ترك فيهم أثراً ، وكان الاسود شاعراً فحلاً . عاش ايام شبابه حياة لهو وفتوة . ينظر : تاريخ اليعقوبي ، احمد بن يعقوب اليعقوبي : 263/1.
53.ديوان الاسود بن يعفر ، د. نوري حمودي القيسي : 52,51
54.كتاب حركة الشعر في ثورة التوابين وامارة المختار الثقفي ، حسن حبيب الكريطي : 244
55.شعر الرثاء العربي واستنهاض العزائم ، د. عبد الرشيد عبد العزيز سالم : 32
56.الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص ، حسني عبد الجليل يوسف : 352
57. هو يزيد بن عمرو بن انس بن زيد مناة بن تميم ، شاعر مخضرم عاش أكثر حياته في الجاهلية ، ادرك الاسلام ، وحسن اسلامه ، شارك في الفتوحات الاسلامية ، وهو من الشعراء المجيدين لكنه مقل ليس بالمكثر ، وقد عمر عبده طويلاً ، حتى وهنت قواه وضعف بصره . ينظر : الاغاني ، ابو الاصفهاني : 18 / 168
58.ينظر : م .ن : 18 / 163
59.شعر عبدة بن الطبيب ، د. يحيى الجبوري : 88,87
60.بحار الانوار ، للعلامة المجلسي : 81/ 274
61.هو الحصين بن بدر بم امرئ القيس بن خليف ، فارس وشاعر مخضرم سمي بالزبرقان لجماله ، والزبرقان هو القمر ، وهو سيد من سادات تميم المشهورين ، اسلم في السنة التاسعة للهجرة عندما وفد مع قومه ، ولمكانته كان شاعر القوم عندما جاء وفد تميم الى الرسول (ص) ، عمر الزبرقان طولاً عاش حتى خلافة معاوية بن ابي سفيان ، وان وفاته كانت

في العام 45 هـ . ينظر : البيان والتبيين ،الجاحظ : 161/1، شعر الزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم ، محمد عبد الجابر : 22

62. شعر الزبرقان بن بدر وعمرو بن الاهتم ، د. سعود محمود عبد الجابر : 53,52

63. دراسات في الادب الاسلامي ، عاني سامي مكي : 146

المصادر والمراجع :

1. الاصابة في تمييز الصحابة ، ابو الفضل احمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت852هـ) ، تحقيق : عادل احمد ، علي محمد معوض ، الناشر : دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، عدد الاجزاء (8).
2. اعلا تميم ، حسين حسن ، لبنان ، دار النشر المؤسسات العربية للدراسات ، ط1 : 1980م.
3. الأغاني ، أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد الاصفهاني (ت356هـ) ، الناشر : دار الكتب ، ط1.
4. بحار الأنوار ، العلامة المجلسي ، الناشر : دار الكتب الإسلامية .
5. البيان والتبيين ، ابو عمرو بن بحر الكناني الفقيمي الجاحظ (ت255هـ) ، تحقيق : عبد السلام هارون ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة : 1961م.
6. تاريخ الأدب العربي ، بروكلمان ، تعريب عبد الحليم نجار ، الناشر : دار المعارف ، مصر : 1961م.
7. تاريخ الادب العربي الادب الجاهلي نقد وتحليل ، السيد جعفر الحسيني : 1995م.
8. التجليات الفنية لعلاقة الانا بالآخر في الشعر العربي المعاصر ، احمد ياسين ، دار الزمان ، دمشق : 2009م.
9. جرس الألفاظ ودلالتها ودلالاتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب ، د. ماهر مهدي ، الناشر : دار الرشيد للنشر : 1980م.
10. جمهرة النسب ، ابو المنذر هشام بن محمد السائب الكلبي (ت204هـ) ، تحقيق : د. حسن ناجي ، الناشر : عالم الكتب ، بيروت ، ط1: 1986م.
11. حركة الشعر في ثورة التوابين وامارة المختار الثقفي ، د. حسن حبيب الكريطي ، ط1، الناشر : الأعلمي : 2015م.
12. حلية لمحاضرة ، محمد بن الحسن بن المظفر الحاتمي (ت388هـ)
13. دراسات في الأدب الإسلامي ، عاني سامي مكي ، الناشر : دار النشر ، مطبعة المعارف ، بغداد ، ط1 : 1968م.
14. ديوان أوس بن حجر ، تحقيق : محمد يوسف نجم ، الناشر : دار صادر ، بيروت : 1960م.
15. ديوان الأسود بن يعفر ، د. نوري حمودي القيسي ، وزارة الثقافة والإعلام ، مديرية الثقافة العامة .

16.ديوان المعاني ، ابو الهلال الحسن بن عبدالله بن سهل بن سعيد بن يحيى العسكري (ت 395هـ) ، الناشر : دار الجيل ، بيروت ، عدد الاجزاء 2 .
17.ديوان نهشل بن حري ، د. حاتم صالح الضامن ، بيروت ، دار صادر ، ط1 : 2011م.
18.الرثاء ، شوقي ضيف ، الناشر : دار المعارف .
19.الرثاء في الشعر العربي العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري ، عبد الحسين عباس علي الحلي ، الناشر : دائرة النشر للشؤون الثقافية والنشر : 1986 م.
20.رسالة الغفران ، احمد بن عبدالله بن سليمان بن محمد أبو العلاء المعري التنوخي (ت449هـ) ، تصحيح : ابراهيم اليازجي ، الناشر : مطبعة (امين هندية) ، ط1، 1907م.
21.شاعرات العرب في الجاهلية والاسلام ، بشير يموت ، الناشر : المكتبة الاهلية بيروت ، ط1 : 1934م .
22.شرح أشعار الهذليين ، أبي سعيد الحسن بن الحسين السكري ،تحقيق : احمد فراج ، محمود احمد شاكر ، ط1، مجلدات 3 ، الناشر : مكتبة دار العروبة : 1965م.
23. شرح نهج البلاغة ، عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن الحسين بن ابي الحديد (ت 656هـ) ، تحقيق : محمد أبو الفضل أبراهيم ، الناشر : دار احياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه .
24.الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه ، د. يحيى الجبوري ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط5 : 1986م.
25.شعر الزبرقان بن بدر وعمرو بن الاهتم ، محمد عبد الجابر ، جامعة قطر ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط1 : 1984م.
26.شعر بني تميم في العصر الجاهلي ، عبد الحميد المعيني ، من منشورات نادي القصيم الأدبي ، الإصدار 7 ، 1982م.
27.شعر عبده بن الطبيب ، د. يحيى الجبوري ، دار التربية للطباعة والنشر والتوزيع .
28.صورة الأخ في الشعر الجاهلي ، (رسالة ماجستير) عادل حماد القاسمي ، رسالة ماجستير ، جامعة حضر موت، كلية الآداب ،قسم اللغة العربية : 2008 م .
29.طبقات فحول الشعراء ، محمد بن سلام الجمحي (232هـ)، تحقيق : محمود شاكر ، الناشر : دار المدني _ جدة ، عدد الاجزاء (2) .
30.العقد الفريد ، الأمام شهاب الدين احمد المعروف بابن عبد ربه الأندلسي (ت 328هـ) ، الناشر : دار الكتب العلمية ، بيروت _ لبنان ، ط1 ، 1404هـ .
31.العمدة في محاسن الشعر وآدبه ، ابو علي الحسن بن علي بن رشيق القيرواني (ت463هـ) ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، الناشر : دار الجيل ، ط5 ، عدد الاجزاء 2 .
32.الكامل في اللغة والادب ، محمد بن يزيد المبرد ، تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم ، الناشر : دار الفكر العربي ، القاهرة ، ط3 ، عدد الاجزاء (4) .
33.مالك ومتمم ابنا نويرة اليربوعي ، تأليف ابتسام مرهون الصفار ، مطبعة الإرشاد ، بغداد : 1968م.
34.معجم اعلام النساء ، محمد التونجي ، الناشر : دار النخبة للتأليف والترجمة والنشر ، لبنان _ بيروت : 2019م.
35.من قضايا البلاغة والنقد عند عبد القادر الجرجاني ، حسن بن إسماعيل بن الحسن بن عبد الرزاق الجناجي (ت 1429هـ) ، مركز النخب العلمية : 1981 م .
36.نقائض جرير والفرزدق ، ابو عبيدة معمر بن المثنى ، تحقيق : محمد ابراهيم ، وليد محمود خالص ، الناشر : المجمع الثقافي ، ابوظبي _ الامارات ، ط2 ، عدد الاجزاء (3) : 1998م.
37.نقد الشعر ، قدامة بن جعفر بن قدامة بن زيد البغدادي (ت337هـ) ، مطبعة الجوائب _ قسطنطينية ، ط1 .

38. وقعة صفين ، أبو الفضل نصر بن مزاحم بن يسار المنقري التميمي (130هـ) ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، طبع ونشر : المؤسسة العربية الحديثة ، ط2 : 1383 .